السلسلة الدعوية

مع القرآن

الشيخ: حارث النظاري

AL-HUSĀM MEDIA

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمدلله الذي نزل الكتاب على نبيه بشيراً ونذيرًا، وجعله شفاءً للصدور. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه جميعًا

وبعد

قد يسر الله لإخواننا في "مؤسسة الملاحم للإنتاج الإعلامي" إخراج مجموعة قيمة من الدروس المرئية للشيخ المجاهد/ "حارث بن غازي النظاري" –حفظه الله- فاستفاد منها خلق كثير بفضل الله تعالى.

ثم فرغ إخواننا في "نخبة الإعلام الجهادي" بعض هذه الدروس حتى تعم الفائدة، ويفيض الخير؛ فأحب إخوانكم في"مؤسسة الحسام الإعلامية" أن يلحقوا بإخوانهم في نيل الأجر بنشر العلم النافع؛ فجمعوا بعض هذه المواد على هيئة كتب ليسهل نشرها والاطلاع عليها لمن ابتغى الفائدة.

لذا فها نحن نقدم بين أيدي القراء الأعزاء السلسلة الدعوية "مع القران"، التي تم إخراجها في ثمان حلقات مرئية. وها هي اليوم بين يديكم مجموعة في كتاب واحد.. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم إلى العلم النافع والعمل الصالح؛ إنه سبحانه وتعالى جواد كريم وبعباده رؤوف رحيم .. والحمد لله رب العالمين ..

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

أما بعد:

مع القرآن؛ تأملٌ وتدبرٌ في آيةٍ من كتاب الله، تصحيحٌ للمفاهيم وضوابط للسلوك.

الحلقة الأولى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

أي نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بطلب المعونة فهي محض التوحيد العلمي والعملي؛ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

وإلى هذه الآية يرجع الدين كله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). فالأول تبرؤ من الشرك والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) الغاية من خلق الثقلين -الإنس والجن- هي العبادة، قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وأرسل الله تبارك وتعالى جميع الرسل بأمرٍ واحد؛ عبادة الله تعالى واجتناب الشرك، قال الله سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

وفي القرآن الكريم أول أمرٍ جاء فيه -أول أمر مباشر في القرآن الكريم - يعني إذا أردت العمل بالقرآن فقرأت القرآن من البداية الفاتحة والبقرة تتتبع أوامر الله تبارك وتعالى للعمل بها؛ ما هو أول أمر تجده؟ هو الأمر بالعبادة. قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، فأول أمر -بترتيب المصحف - هو الأمر بعبادة الله تبارك وتعالى واجتناب الشرك (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)، والأمر في أول أمر جاء لعموم الإنسانية للبشر جميعًا للناس جميعًا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

وأصل العبادة: التذلل والخضوع لله تبارك وتعالى. والعبادة هي: طاعة الله تبارك وتعالى بامتثال ما أمر الله به على ألسنة رسله، أو التعريف المعروف المشهور: هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

حقيقة العبادة: هي خضوع الحياة كل الحياة لله تبارك وتعالى، خضوع الحياة؛ جميع شؤونها لأمر الله تبارك وتعالى، للوحي، للكتاب والسنة، أن تكون الشريعة حاكمةٌ على أفعالنا وتصرفاتنا ومشاريعنا ومناهجنا، تكون كلها خاضعة لله تبارك وتعالى، وبذلك تكون هي العبادة.

قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) فهو أمرٌ من الله تبارك وتعالى (وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) أمرت بماذا؟ أن تكون الحياة؛ كل الحياة لله، وأن يكون الموت في سبيل الله، (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ) لا حظَّ لأحدٍ فيها، لا حظَّ لأحدٍ في حياتي ولا في مشاريعي ولا في سلوكي، كلها في سبيل الله وفي مرضاة الله تبارك وتعالى، وكذلك موتي لا يكون إلا في ما يحب الله تبارك وتعالى وفي ما يرضاه الله تبارك وتعالى (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) أنا أول المبادرين، أنا أول المنفذين، أنا أول الملتزمين، أنا أول المسارعين لما يحبه الله تبارك وتعالى ويرضاه.

وأن تكون الحياة لله تبارك وتعالى لا يتحقق ذلك إلا بإصلاح النية وإصلاح العمل، حتى تكون الحياة لله والموت في سبيل الله لا بد أن تصلح النية ويصلح العمل، إصلاح النية بأن يكون القصد ابتغاء الله والدار الآخرة، قال الله سبحانه وتعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ) لا يريدون مكانةً في الأرض، لا يريدون أن يكون لهم سلطان في الأرض إنما الذي يريدونه أن يكون سلطان الله تبارك وتعالى على الجميع، ليس هدفي أن تخضع لسلطاني أو أن تكون في حكمي، لا، إنما أن أكون أنا وأنت وجميع البشر تحت سلطان الله تبارك وتعالى، أخضع أنا وأنت والبشرية لأمر الله تبارك وتعالى ولسلطان الله تبارك وتعالى، فالأمر ليس مغالبة لمن يكون السلطان، لي أو لفلان أو لك، لا، إنما أن يكون حكم الله تبارك وتعالى وشرع الله ودين الله ساريًا على الجميع، إصلاح النية.

وإصلاح العمل: أن يكون العمل على الكيفية التي يريدها الله تبارك وتعالى، أن أعبد الله تبارك وتعالى كما يريد الله لا كما أريد أنا.

قال الإمام الشاطبي -رحمه الله -في الموافقات في موضوع العبودية والخضوع لله تبارك وتعالى وعدم التملص من الأحكام الشرعية أو مخالفة الحكم الشرعي، قال رحمه الله: "إنما قصد الله تبارك وتعالى بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبدًا لله"، فنحن نعبد الله تبارك وتعالى كما يريد الله تبارك وتعالى لا كما نريد، نحن ننفذ أوامر الله تبارك وتعالى لا نتبع رغباتنا وأهواءنا، فاتباع الهوى مخالفٌ لتحقيق العبودية، إما اتباع الهوى وإما اتباع الشريعة، إما حكم الله وإما الهوى.

واتباع الهوى له صورتان رئيسيتان - باختصار: -

-اتباع الهوى في الإعراض عن الحكم الشرعي. يتبع الهوى ويترك الشريعة، كل الشريعة يتجنبها، لا يريد أصلاً الالتزام بالشريعة، لا يخضع للالتزام بالشريعة، لا يخضع لله وللالتزام بوحيه، متبع للهوى مخالف للشرع قال الله سبحانه وتعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) هذا الأمر الأول في اتباع الهوى؛ أن يترك الشريعة ويترك الوحي ويتجنب الدين ويتبع هواه.

_ الأمر الثاني: اتباع الهوى في التعامل مع الحكم الشرعي، هو سائر على شرع الله تبارك وتعالى لكن تأتي النصوص فيطوِّع النصوص لتوافق هواه، فيتلاعب بالنصوص الشرعية بمدلولات النصوص الشرعية، لا يحرف النصوص الشرعية لكن يحرف معانيها يحرف أحكامها، كما قال الله سبحانه وتعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) هذا الصنف الآخر ملتزم بالشريعة سائر في الدين لكن يطوع النصوص بما يوافق الهوى فتنتج البدع وتنتج المخالفات الشرعية وأمور كثيرة غير موافقة للشرع بسبب اتباع الهوى في التعامل مع النصوص الشرعية.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أي نطلب العون والتأييد والتوفيق منك، نخصك بطلب المعونة، أن يعيننا الله تبارك وتعالى.

الاستعانة: هي الاعتماد على الله تبارك وتعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله في تحصيل ذلك.

وهناك أمر يقع فيه الكثير من الناس وهو انفصال الاستعانة عن العبودية، فترى الإنسان يستعين بالله تبارك وتعالى، يقول: نستعين بالله تبارك وتعالى على طلب الرزق، نستعين بالله تبارك وتعالى في طلب المعيشة، نستعين بالله تبارك وتعالى على هموم الدنيا، نستعين بالله تبارك وتعالى في حل بعض الإشكالات، والمطلوب الأساسي هو الاستعانة بالله تبارك وتعالى على تحقيق أمر الله، الاستعانة بالله تبارك وتعالى على القيام بالأمر الشرعي، الاستعانة بالله تبارك وتعالى على تحقيق العبودية، لذلك علّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم معاذ بن جبل -رضي الله عنه- فقال: "يا معاذ والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" فيعلِّم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم أن يسألوا الله تبارك وتعالى العون في القيام بالأمر الشرعي "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" فنتوكل على الله تبارك وتعالى على القيام بأمر الله تبارك وتعالى، نستعين بالله على القيام بأمر الله تبارك وتعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله: "تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته" أي أن يسأل العبد ربه أن يعينه على مرضاته تعالى، قال: "تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين" نعبد الله تبارك وتعالى ونستعين بالله على العبادة، والعبادة تشمل جميع الحياة، فالاستعانة بالله على كل أمر.

الحلقة الثانية:

(الصِّرَاط الْمُسْتَقِيمَ)

أول دعاءٍ في القرآن -بترتيب المصحف -هو الدعاء بالهداية للصراط المستقيم وهو في الفاتحة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

الصراط: بمعنى الطريق، الطريق الواسع المعتدل، هذا معنى الصراط. المستقيم، بمعنى: لا اعوجاج فيه.

والصراط المستقيم: هو الإسلام الذي بعث الله به أنبياءه ورسله، الاستسلام لله تبارك وتعالى والسير على منهجه، هذا الصراط المستقيم.

والصراط المستقيم هو سبيل المُنعَم عليهم، أهل النعمة الذين أنعم الله تبارك وتعالى عليهم، هم السائرون على الصراط المستقيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فالسائرون على الصراط المستقيم منعم عليهم، أنعم الله تبارك وتعالى عليهم بنعمةٍ عظيمة وهي نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم.

وأخبرنا الله تبارك وتعالى من هم الذين أنعم عليهم، قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا)

الصراط المستقيم لا اعوجاج فيه، مستقيم لا اعوجاج فيه، لذلك هو مخالفٌ لصراط المنحرفين، صراط المنحرفين هو صراط المغضوب عليهم والضالين، قال الله سبحانه وتعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) أي اهدنا صراطك المستقيم الذي أنعمت

على عبادك بالسير عليه ولا تجعلنا من السائرين على صراط المغضوب عليهم ولا على صراط الضالين، اجعلنا على طريقك المستقيم لا على الطرق الضالة؛ طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

المغضوب عليهم: هم كل من عرف الحق وأعرض عنه، علم الحق ولكن أعرض عنه لا يتعلمه ولا يعمل به، وكل من علم الحق ولم يعمل به، وعلى رأس هؤلاء اليهود.

والضالون: هم كل من يعمل بلا علم، وعلى رأس هؤلاء النصارى -المسيحيون كما يحبون أن يسموا أنفسهم - فالذين يعملون خبط عشواء هكذا لا يعرفون حكم الله ولا شرع الله ولا دين الله ولا أمر الله ويسعون في الأرض؛ هؤلاء هم الضالون.

والمهتدون: هم السائرون على منهج الله تبارك وتعالى.

الهداية إلى الصراط المستقيم تعني أو تلزم: العلم بالحق والعمل به.

الصراط المستقيم هو دين الإسلام.

قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ) -لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأمته- (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فأمر الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسائرين على دين النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الإعلان، إعلان عام: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ما أنا عليه من الدين ومن الوحي ومن اتباع الأوامر الشرعية هو الصراط المستقيم، هذا الدين الذي أسير عليه -الإسلام- هو ملة إبراهيم عليه السلام، فهو امتداد للوراثة النبوية للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، دين التوحيد ودين الإسلام (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) هذا إعلان، أنا على الحق ومن لم يكن على الحق فهو على الباطل، ما هو الحق؟ اتباع محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم.

واتباع الصراط المستقيم هو وصية الله تبارك وتعالى لعباده، قال الله سبحانه وتعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) فوصية الله تبارك وتعالى لخلقه أن يتبعوا الصراط المستقيم، وصية الله .

كيف أكون على الصراط المستقيم؟

أكون على الصراط المستقيم بالإيمان بالله تبارك وتعالى، فالمؤمنون بالله على الصراط المستقيم، مهتدون إلى الصراط المستقيم، قال الله سبحانه وتعالى: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أولاً الإيمان، ثم الاستجابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، طاعته واتباعه والتسليم له، قال الله سبحانه وتعالى: (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فمن استجاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم واتبع سُنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو على الصراط المستقيم سائرٌ متبع.

نكون على الصراط المستقيم باتباع القرآن العظيم، قال الله سبحانه وتعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الهداية إلى الصراط المستقيم أين؟ في كتاب الله تبارك وتعالى، أوامر القرآن، أحكام القرآن، أخلاق القرآن اتباع القرآن هو السير على الصراط المستقيم، وبقدر الانحراف عن كتاب الله وعن سُنة رسول الله وبقدر الابتعاد عن الإيمان يكون الانحراف واتباع السبل الضالة.

السير على الصراط المستقيم يكون بالتزام عبادة الله تبارك وتعالى واجتناب الشرك، قال الله سبحانه وتعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) فأخبر الله سبحانه وتعالى أنّ اتباع الصراط المستقيم بالسير على عبادته (وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) وأن لا نتبع الشيطان وأن لا نعبد الشيطان وأن لا نجعل إمامنا الشيطان -والعياذ بالله-.

إذن السير على الصراط المستقيم يستلزم: التزام الطاعة واجتناب الشرك، السير على الصراط المستقيم بفعل الطاعة واجتناب المعصية، قال الله سبحانه وتعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) الهداية إلى الصراط المستقيم أن يفعل العبد ما يوعظ به -ما يوعظ به في الكتاب وفي السنة - فعل الطاعة واجتناب المعصية. ما هي الموعظة؟ الموعظة من الله تبارك وتعالى ومن محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم هي بفعل الطاعة واجتناب المعصية، فإذا فعل الإنسان الطاعة واجتنب المعصية كان سائرًا على الصراط المستقيم، وانحرافه عنه بقدر مخالفته للأوامر الشرعية.

السير على الصراط المستقيم والهداية إليه في الاعتصام بالله، قال الله سبحانه وتعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يهدي المعتصمين به إلى الصراط المستقيم، بل حكم الله تبارك وتعالى أنّ من اعتصم به فقد

هُدِي إلى الصراط المستقيم، قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) حكم من الله تبارك وتعالى أنّ المعتصم به مهتدٍ إلى الصراط المستقيم .

كيف يكون الاعتصام بالله؟

الاعتصام بالله -إجمالاً وباختصار - في أربعة أمور: التسليم والانقياد التام للكتاب والسنة، قال الله سبحانه وتعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) إسلام واستسلام وانقياد لأحكام الله تبارك وتعالى في الكتاب والسنة، ومن خالفها فهو في ضلالٍ مبين، الهداية في الكتاب والسنة، والضلال المبين الواضح هو في مخالفة الشريعة، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: عدم التقديم بين يدي الله ورسوله، عدم الافتئات على الشريعة، أن لا يقدم على أمر إلا بعد أن يعلم حكم الله تبارك وتعالى فيه وحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه، ما قال الله؟ ما قال الرسول في هذا الأمر؟ هل هو جائز؟ قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) معناها عدم الافتئات على الشريعة، أن لا نقدم عليها شيئًا ونجعل الشريعة هي الإمام، الكتاب والسنة هو الإمام ونحن متبعون لكتاب الله ولسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث من الاعتصام بالله تبارك وتعالى: إبطال ما خالف الكتاب والسنة، كل أمرٍ خالف الكتاب والسنة، كل عُرف، كل عادة، كل قانون أو دستور أو منظومة أو منظمة أو كائنًا ما كان خالف الكتاب والسنة فهو باطل، أعتقد بطلانه وأجهر ببطلانه، قال الله سبحانه وتعالى: (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) هذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل ما خالفها فهو الضلال.

الأمر الرابع من الاعتصام بالله تبارك وتعالى: الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع، حصل خلاف الرد إلى أين؟ إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله، ليس الرد إلى الدستور والقانون ولا إلى الشرعية الدولية ولا إلى الشرعية الثورية ولا إلى صناديق الاقتراع ولا إلى البرلمان، اختلفنا في شيء نحن المسلمين، أين الحكم؟ الحكم في كتاب الله وسنة رسول الله، إذا اختلفنا في أمر أمرنا الله تبارك وتعالى أن نرده إلى كتاب الله وسنة رسوله

قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) فقيّد الله سبحانه وتعالى هذا الأمر (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) تؤمن بالله، تؤمن باليوم الآخر إذا تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، معناه: من لم يرد التنازع إلى الكتاب والسنة إلى شريعة الله إلى حكم الله فكيف هو في الإيمان بالله واليوم الآخر؟

هذه أربعة أمور يكون بها الاعتصام بالكتاب والسنة .

الأمر الأخير من السير على الصراط المستقيم: بالفتح في سبيل الله –الفتح - قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) فأخبر الله سبحانه وتعالى أنّ الهداية إلى الصراط المستقيم تكون مع الفتح -فتح البلدان- بالجهاد وغيره في سبيل الله.

من التزم الصراط المستقيم اليوم نجا على الصراط المستقيم يوم القيامة، صراط الله المستقيم على الأرض هو أحكامه الشرعية -الإسلام-، ولله تبارك وتعالى يوم القيامة صراط منصوبٌ على ظهر جهنّم من سار على هذا الصراط اليوم ونجا نجا على ذلك الصراط، وبمقدار سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط يوم القيامة -كما قال ابن القيم في المدارج-. فلينظر العبد من سيره على هذا الصراط سيره على ذاك الصراط، فمن تخطّفته هنا الشبهات والشهوات تخطّفته هناك الكلاليب على ظهر جهنّم جزاءً وفاقا، ومن كان هنا مسرعًا في طاعة الله فهو في الآخرة متجاوزٌ سبّاقٌ إلى الجنة .

الحلقة الثالثة:

(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)

قال الله تبارك وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)

القرآن لا ريب فيه ولا شك فيه، لا ريب في القرآن أنه من عند الله تبارك وتعالى، وأنه كلام الله وأنه وحي الله وأنّ الله تبارك وتعالى أوحاه إلى محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الرسل، قال الله تبارك وتعالى: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فالقرآن من الله تبارك وتعالى لا شك في ذلك ولا ريب.

وهذه الآية العظيمة (الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) التي حكم الله تبارك وتعالى فيها أنّ القرآن لا شك فيه ولا مرية ولا شبهة في أول الكتاب العزيز في بداية المصحف بداية الختمة بعد الفاتحة -مقدمة الكتاب الفاتحة- أول ما تقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى بعد الفاتحة تقرأ هذا الحكم العجيب الذي أخبر الله تبارك وتعالى فيه عن كتابه أنه لا شك فيه ولا شبهة ولا ريبة، فأول ما تدخل على القرآن العظيم تلاوةً وقراءةً واتباعًا تدخل بهذا المنهج أنّ القرآن لا ريب فيه، لا ريب فيه أنه من الله تبارك وتعالى، ولا ريب في أحكامه ولا في أخباره، أخباره صدق وأحكامه عدل، كما قال الله سبحانه وتعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أحكام الله تبارك وتعالى كلها عدل وأخباره تبارك وتعالى كلها صدق لا مبدل لكلماته لا تحريف لها لا تغيير لها أحكامه ثابتة مستقرة لا تتبدل ولا تتغير، ولسنا بحاجة في القرآن للتعديلات ولا للتصويت ولا لمعارك انتخابية أو دستورية لأن القرآن محفوظ من الله تبارك وتعالى، دستورنا القرآن من الله تبارك وتعالى محفوظ تمت كلماته صدقًا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله تبارك وتعالى.

القرآن لا ريب فيه أنه من الله تبارك وتعالى ولا ريب في أحكامه ولا في أخباره لأن القرآن هو الحق، قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أخبر الله سبحانه وتعالى أنّ القرآن هو الحق وإن آمن الناس به أو كفروا، إذا كفر أكثر الناس ولم يصدقوا بكتاب الله أو لم يستسلموا له هل معنى ذلك أنّ في القرآن

شبهة أو شك أو ريبة؟ كلا، قال الله سبحانه وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

والمؤمنون مطمئنون غير مرتابين ولا شاكين في كتاب الله تبارك وتعالى لا في أخباره ولا في حكمه ولا في وعده، وهذا ما أخبر الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين الصادقين أنه ليس في قلوبهم شك ولا ريبة في حكم الله تبارك وتعالى ولا في وحيه، قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فأخبر الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين أنهم آمنوا بالله ورسوله وصاروا في يقين، حياتهم في يقين، إيمانهم في منزلة اليقين، لا شك لديهم ولا ريبة (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) ، وبعد أن آمنوا وصدّقوا واستسلموا جاء العمل، قال الله سبحانه وتعالى: (وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) تصديق وقناعة ويقين وعمل، إيمانٌ وجهاد بالمال والنفس. الذي جمع هذه الأمور من المؤمنين -من اليقين ونفي الشك والشبهة والريبة والاستسلام لأمر الله تبارك وتعالى وحكمه والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس- قال الله سبحانه وتعالى عنهم: (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فزكاهم الله تبارك وتعالى أنهم صادقين.

قال الله سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين مع أقدار الله تبارك وتعال ومع شرعه ومع أحكامه عندما جاءت الأحزاب إلى المدينة زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الله سبحانه وتعالى -يصف حال المؤمنين- قال الله سبحانه وتعالى: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) في تلك الحالة العظيمة الشديدة، شديدة الهول، واجتماع الكفار، وشدة الحال، ما كان حال المؤمنين مع هذه الواقعة مع اتباعهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مع إيمانهم بالوحي؟ قال الله سبحانه وتعالى للمؤمنين: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنّ الكفار أعداؤنا وأنّ الكفار يحاربوننا ولا يزالون يقاتلوننا فلما رأى المؤمنون ذلك بأعينهم وعاشوا الواقع بحالهم قال الله تبارك وتعالى عنهم أنه زادهم ذلك إيمانًا بالله تبارك وتعالى وتسليمًا له (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

القصد: أنّ الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين الذين أثنى عليهم ووصفهم بالصدق أنهم لا ريبة عندهم وأنهم متبعون للكتاب والسنة

قال الله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) هم أهل الصدق، والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نكون مع الصادقين، قال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

المنافقون هم المرتابون

وتظهر ريبة المنافق عند الشدة وفي الجهاد، قال الله سبحانه وتعالى: (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) فأخبر الله سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم مرتابون وأنهم في ريبهم يترددون، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى عن حال المنافقين في غزوة الأحزاب، قال الله سبحانه وتعالى عن غزوة الأحزاب: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) فتظهر ريبة المنافق في الشدة وعند الجهاد، لذلك سورة التوبة هي السورة الفاضحة، سماها ابن عباس رضي الله عنه سورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين .

يتمحص اليقين وتظهر الريبة عند تحكيم الشريعة

إذا جاء تحكيم الشريعة اتضح من هم أهل اليقين والإيمان بالله تبارك وتعالى والاستسلام له ولحكمه وشرعه وظهر من هم المنافقون وأهل الريبة وأهل الشك، قال الله سبحانه وتعالى: (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) أخبرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أنّ المنافقين معرضين عن كتاب الله تبارك وتعالى معرضين عن تحكيم الشريعة كارهين لحكم الله تبارك وتعالى، وبيّن سبحانه وتعالى ما هو قول المؤمنين (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أولئك هم أهل الفلاح كما قال الله سبحانه وتعالى: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال الله سبحانه وتعالى في نهاية الآيات: (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) في الدنيا والآخرة .

الشك والريبة منافٍ للإيمان

إذا جاء الشك أو إذا جاءت الريبة خرج الإيمان، لم يعد الإنسان من المؤمنين. وأخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أهل الشك والريبة في يوم القيامة وعن حالهم، قال الله سبحانه وتعالى: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) -المنافقون ينادون المؤمنين- (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى) -المؤمنين يقولون بلى- (قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) مأواهم ومولاهم جهنم وبئس المصير مع إخوانهم الكفار، كما قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار، قال سبحانه وتعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) فالمنافقون والكفار في جهنم أولئك هم أهل الريبة وأهل الشك وهم المرتابون الشاكون في أمر الله تبارك وتعالى وفي شرعه وقدره .

الريبة والشك ليست للمؤمنين

الريبة والشك للمنافق ومن في قلبه مرض، قال الله سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) فأخبر الله سبحانه وتعالى عن الذين في قلوبهم مرض أنهم يتبعون المتشابه من كتاب الله تبارك وتعالى فيضربون القرآن بعضه ببعض يثيرون الشبهات.

لماذا يثيرون الشبهات؟

للتملص من الحكم الشرعي حتى يعرضوا عن الشريعة وحتى يصدوا عن أمر الله تبارك وتعالى ويصدوا عن سبيل الله تبارك وتعالى، فقد يستدلون بآيات من كتاب الله تبارك وتعالى وقد يستدلون بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتجد من كلام المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ وزيغ آيات من كتاب الله يحرفون معانيها ويضربون الكتاب بعضه ببعض ليصدوا عن سبيل الله، ولكن المؤمن في حصن حصين مع كتاب الله تبارك وتعالى .

لا تخش من بدعٍ لهم وحوادثٍ * ما دمت في كنف الكتاب وحرزه

من كان حارسه الكتاب ودرعه * لم يخش من طعن العدو ووخزه

القرآن يزداد به المؤمنون إيمانًا ويزداد به المنافقون والذين في قلوبهم مرض رجسًا ويموتوا وهم كافرون .

قال الله سبحانه وتعالى: (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) كلما جاءت آية وكلما علموا بآية أو أمر من وحي الله تبارك وتعالى كذّبوه أو صدوا عنه أو شكوا فيه فكلما ازدادت الآيات ازدادوا شبهةً وشكًا وريبةً وإعراضًا عن الله تبارك وتعالى وعن دينه فازدادوا رجسًا على رجسهم ثم كان مآلهم إلى الجحيم والعياذ بالله .

كتاب الله تبارك وتعالى لا شك فيه ولا ريب والمؤمنون ليس في قلوبهم شك ولا ريبة، والشك والريبة مع الكفار والمنافقين .

الحلقة الرابعة:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين يتلون القرآن، قال الله سبحانه وتعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) فأخبرنا سبحانه وتعالى أنّ الذين يتلون القرآن حق تلاوته هم الذين يؤمنون به، وأنّ الكافرين -الذين كفروا بالقرآن - هم الخاسرون، خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة وهم وقود النار.

تلاوة القرآن أمرها عظيم، ولكن ما المقصود بالتلاوة؟

التلاوة لها معنيان: التلاوة بمعنى القراءة، والتلاوة بمعنى الاتباع.

التلاوة بمعنى القراءة: يتلو البيان يعني يقرأه، يتلو القرآن يعني يقرأه.

التلاوة بمعنى الاتباع: أن يجعل القرآن إمامًا له ويتبعه ويقتدي به، لذلك نقول التالي الأول والتالي الذي يتبع. فتلاوة القرآن لها معنيان تلاوة بمعنى القراءة وتلاوة بمعنى الاتباع.

التلاوة بمعنى القراءة أي يقرؤونه حق قراءته، ولا يتم ذلك إلا بأمرين اثنين: القراءة الصحيحة، والتدبر السليم. يقرأ القرآن قراءة صحيحة خالية من اللحن، ومع القراءة الصحيحة التدبر.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: والذي نفسي بيده إنّ حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئًا على غير تأويله. هذا كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

وتلاوة القرآن مقصد من مقاصد بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسل الله تبارك وتعالى محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمقاصد، من هذه المقاصد تلاوة القرآن، وهي دعوة إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام لهذه الأمة، قال الله سبحانه وتعالى -عن ابراهيم وإسماعيل- : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

ومنّ الله تبارك وتعالى على هذه الآمة أن أرسل إليها محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليها القرآن يقرأ عليها القرآن، قال الله سبحانه وتعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فتلاوة القرآن مقصد من مقاصد بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن مقاصد إنزال القرآن التدبر، فأنزل الله تبارك وتعالى القرآن من مقاصد إنزال القرآن أن يتدبره المؤمنون، قال الله سبحانه وتعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)، (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) لام التعليل، فأنز الله سبحانه وتعالى القرآن -هذا المبارك - لتلاوته وتدبره، التأمل فيه والاتعاظ به.

التدبر من معانيه الاتعاظ بالقرآن العظيم.

وعاب الله تبارك وتعالى على الذين لا يتدبرون كتابه، قال ربي سبحانه وتعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) لماذا لا تتدبر القرآن؟ هل على قلبك قفل؟

والحياة مع القرآن تلاوةً وتدبرًا حياة طيبة، تختلف حال التالي للقرآن المتبع القارئ له الذي يعيش مع القرآن تختلف حالته النفسية والمعنوية ونظرته للحياة والكون والإنسان، ورحم الله الشاطبي:

وحيث الفتى يرتاع في ظلماته * * من القبر يلقاه سنًا متهللا

هنالك يهنيه مقيلاً وروضةً * * ومن أجله في ذروة العز يجتلى

يناشده في إرضائه لحبيبه * * وأجدر به سؤلاً إليه موصلا

فيا أيها القاري به متمسكًا * * مجلاً له في كل حالٍ مبجلا

هنيئًا مريئًا والداك عليهما * * ملابس أنوارٍ من التاج والحلا

فما ظنكم بالنجل عند جزائه * * أولئك أهل الله والصفوة الملا

أولو البر والإحسان والصبر والتقى * * حلاهم بها جاء القران مفصلا

عليك بها ما عشت فيها منافسًا * * وبع نفسك الدنيا بأنفاسها العلا

التلاوة أيضًا بمعنى الاتباع، يتبع القرآن، قال الله سبحانه وتعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ*إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ.(

هما أمران: إما اتباع الشريعة، وإما اتباع أهواء الذين لا يعلمون، هكذا، إما أن تكون مع الشريعة وإما أن تكون مع الأهواء الفاسدة الضالة، (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) القرآن فيه الهداية، وأهواء الذين لا يعلمون فيها الجهل، ثم إذا اتبعت هؤلاء الذين لا يعلمون، الجهلة، والأهواء، والشهوات، والشبهات، أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لن ينفعوك في الدنيا ولا في الآخرة (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) إما أن يكون وليك الله تبارك وتعالى أو أن يكون وليك الظالمون (إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

قال الله تبارك وتعالى عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في القرآن: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ*وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ) فمن الأوامر التي جاءت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم العبادة والإسلام وتلاوة القرآن - تلاوة القرآن بمعنى اتباعه وأيضًا قراءته- (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ*وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ) أن أتبع كتاب الله تبارك وتعالى.

لماذا أنزل الله القرآن؟

أنزل القرآن لنعمل به، نقرأه ونعمل به، نهتدي به، أنزل الله سبحانه وتعالى الكتب من السماء لهداية البشر، فأنزل الله سبحانه وتعالى القرآن للعمل به، لم ينزل فحسب للبركة وهو بركة -القرآن العظيم - لكنه لم ينزل لذلك فقط التبرك بتلاوته، التلاوة مطلوبة والبركة في القرآن موجودة ولكن المطلوب أيضًا الاتباع والاقتداء والسير على هديه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا". يقول: الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن لنعمل به، أنزل القرآن نتلوه حتى نعمل به، قال فجعل بعض الناس عملهم تلاوة القرآن، "أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إنّ أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا وقد أسقط العمل به" وللأسف هناك من المسلمين من يجيد تلاوة القرآن ويحفظ القرآن ويحفظه بالقراءات ويجوده ولكن تنظر أين القرآن من حياتنا وأين القرآن من مناهجنا وأين القرآن من شريعتنا وأين نحن من اتباع القرآن؟

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا*وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

الحلقة الخامسة:

(صِبْغَة اللَّهِ)

وردت (صِبْغَةَ اللَّهِ) في القرآن في موضع واحد في سورة البقرة، والصبغة ليست بمعنى الطلاء، الطلاء كالغشاء يزول، فالطلاء كالغشاء وزنًا ومعنى، لكن الصبغة تتخلل المصبوغ وتصير من ماهيته وتتماهى فيه.

(صِبْغَةَ اللَّهِ) وردت هذه العبارة أو هذا اللفظ (صِبْغَةَ اللَّهِ) في قول الله تبارك وتعالى في سياق الآيات قال الله سبحانه وتعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) هذه الآيات قول الله سبحانه وتعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) اليهود يقولوا كونوا هودًا تهتدوا، والنصارى يقولون كونوا نصارى تهتدوا، كل أمة تدعو أمة الإسلام إلى الهداية حسب زعمهم إلى منهجهم، فالنصارى يدعون المسلمين إلى ملتهم واليهود يدعون المسلمين إلى ملتهم ويزعمون أنّ الهداية فيما هُم فيه، فهي دعوة واستقطاب من الأمم المخالفة لأمة الإسلام.

وكان الجواب من الله تبارك وتعالى (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

قال الله سبحانه وتعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) ملة إبراهيم التي يزعم اتباعها اليهود والنصارى ليست اليهودية ولا النصرانية، قال الله سبحانه وتعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) نحن أتباع ملة إبراهيم عليه السلام، نحن الذين آمنَّا مع محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ونحن الوارثون لملة إبراهيم عليه السلام، وبقية الملل هي المخالفة وهي المنحرفة وهي الضالة عن ملة إبراهيم عن ملة التوحيد.

أمرَ الله تبارك وتعالى الأممَ باتباع ملة إبراهيم التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال ربي سبحانه وتعالى: (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

بل أمر الله سبحانه وتعالى محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم باتباعها، وملة إبراهيم هي التوحيد كما سيأتي معنا،

قال الله سبحانه وتعالى: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فهو وحيٌ من الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بوجوب اتباع ملة إبراهيم، الأمر للجميع (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) وأمر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته باتباع ملته (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

ما هي ملة إبراهيم؟

ملة إبراهيم عليه السلام هي: الإسلام والاستسلام لله ومجانبة الشرك وأهله، مجانبة الشرك والمشركين، الولاء والبراء.

أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام فقال ربي جلّ شأنه عن إبراهيم: (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) جاءه الأمر من الله تبارك وتعالى (أَسْلِمْ) أسلم (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) دون تلكؤ دون تباطؤ، استسلام مباشر لأمر الله تبارك وتعالى، وهذا من ملته؛ الاستسلام لأمر الله، الإسلام له والاستسلام لأمر الله ولشرعه قولاً وعملاً. وهي وصية إبراهيم عليه السلام ويعقوب لبنيه أن يكونوا على الإسلام كما جاء في الآيات التي تليها: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) فملة إبراهيم عليه السلام هي الإسلام والاستسلام لأمر الله وشرعه؛ وافق الرغبات أو خالفها، جاء الأمر من الله تبارك وتعالى بالهجرة هاجر إبراهيم عليه السلام، جاء الأمر بمفارقة الأهل والأولاد فوضع زوجته وابنه بوادٍ غير ذي زرع ثم رحل، أمر الله آمنت به واستسلمت له، جاءه الأمر بذبح ابنه استسلم لأمر الله تبارك وتعالى وانقاد له ثم جاء الفرج من الله تبارك وتعالى، فهو الإسلام والاستسلام للباري جلّ شأنه. ونحن نتبع ملة إبراهيم التي أمر الله تبارك وتعالى بها إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله تبارك وتعالى بأنه كان أُمَّة، أمة بمعنى إمام أو أنه كان بحجم أمة أو بثواب أمة، وهكذا الأنبياء والصالحون المقتدى بهم لهم أجرهم وأجر من تبعهم، قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) فوصف الله تبارك وتعالى إبراهيم بأنه كان أُمة، كان إمامًا قانتًا لله، والقنوت هو الدوام على العبادة وعلى الطاعة، دائمًا في طاعة الله تبارك وتعالى وفي عبادته، والقنوت أيضًا بمعنى طول القيام في الصلاة، (كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) متبرئًا من الشرك ومن المشركين، مفاصلة مع أهل الباطل، مفاصلة مع الشرك، ولاء وبراء شاكرًا لأنعمه تبارك وتعالى بالقول والعمل، اجتباه الله وهداه إلى صراطٍ مستقيم، قال الله سبحانه وتعالى: (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

ونحن أهل الامتداد التاريخي والوراثة للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، قال الله سبحانه وتعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) نحن أهل المنهج ومن عادانا هم الشاذون المخالفون للإسلام المجانبون للملة القويمة، التوحيد دين جميع الأنبياء والمرسلين.

ثم فصَّل الله تبارك وتعالى في أنّ الهدى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، قال الله سبحانه وتعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) فالهداية هي في اتباع السلف، النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان، هذه الآية من الأدلة على وجوب اتباع منهج السلف النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون لهم بإحسان (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) هم المشاقون وهم المنشقون (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ) لا تخافوا منهم لا تقلقوا من كيدهم (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

هذا المنهج وهذا الدين والتوحيد والامتداد التاريخي للرسالة النبوية من التوحيد والإيمان والطاعة والقنوت لله تبارك وتعالى والشكر لأنعمه تبارك وتعالى؛ جميع هذا: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) هذا ما صبغنا الله تبارك وتعالى به من الإيمان والتوحيد والطاعة والانقياد والهجرة ومراغمة المشركين والبراءة من الشرك وأهله والشكر لأنعم الله تبارك وتعالى (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) هذه مهمتنا نحن عبيد لله تبارك وتعالى نعبده كما يريد هو تبارك وتعالى لا كما نريد حسب رغباتنا وأهوائنا، كلا، نعبد الله تبارك وتعالى كما يحب الله تبارك وتعالى (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

الحلقة السادسة:

(أمة وسطًا)

قال الله سبحانه وتعالى في الثناء على هذه الأمة وبيان فضيلتها وبيان واجبها الذي تكون عليه، قال الله سبحانه وتعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فأخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنّ هذه الأمة أمة وسط، وهو أمر تكليف من الله تبارك وتعالى وتشريف: تكليف لها أن تكون على الوسط، وتشريف أنّ الله سبحانه وتعالى اختار لها الوسط.

وهذه الآية العظيمة جاءت في سياق الحديث عن تحويل القبلة، قال الله سبحانه وتعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فسمّى الله تبارك وتعالى من خالف قبلة المسلمين (سفهاء) الذين يعترضون على الله تبارك وتعالى والذين يعترضون على حكم الله وعلى شرع الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يكون هذا إلا سفاهة وضعف في العقل، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ) والسفهاء من الناس هم المعترضون على شرع الله تبارك وتعالى المعاندون لأحكام الله تبارك وتعالى؛ الكفار والمنافقون. كما قال الله سبحانه وتعالى عن المنافقين: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) فالمنافقون يرون ما عليه المسلمين من الإيمان والتزام الشريعة والسير على أمر الله سبحانه وتعالى والاهتداء بسنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يرونه سفاهة، والله سبحانه وتعالى أخبر أنّ السفه في ترك الإيمان ومخالفة الشرع (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)

القصد؛ أنّ هذه الآية قول الله سبحانه وتعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) جاءت في سياق تحويل القبلة.

وسمّى الله تبارك وتعالى هذه الأمة وشرّفها بأن تكون وسطًا وكلّفها.

وما معنى وسط؟ ما معنى أنّ هذه الأمة وسط وأنّ الله سبحانه وتعالى اختار لها الوسطية؟

الوسط لها عدة معان منها: الحسن والفضل والخير والخيرية، أي أنّ هذه الأمة خير الأمم وأفضل الأمم وأحسن الأمم (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

قال الله سبحانه وتعالى في الثناء على هذه الأمة: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) الخيرية أيضًا بمعنى الوسط، فهذا من الأدلة على أنّ الوسط بمعنى الخيرية والأفضلية، قال الله سبحانه وتعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فخيرية هذه الأمة في إيمانها بالله وقيامها بالواجب الشرعي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فما دامت سائرة على منهج الله تبارك وتعالى على الإيمان وعلى الانضباط بالأوامر الشرعية من الوحي (الكتاب والسنة) فهي في خير.

ومقياس الخيرية لهذه الأمة بمقدار التزامها بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكلما بعدت عن الالتزام بالوحي بالكتاب والسنة قلّت خيريتها، وإن كانت في مجملها على الخير لكن بقدر ابتعادها عن منهج الله الذي أمر الله به من الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالواجب الشرعي قلّت خيريتها، فخيرية هذه الأمة في إقامتها للدين، خيريتها في اتباعها لكتاب الله ولسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا معنى من معاني الوسطية، (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) أي أمةً خيرة، أمةً مباركة، أمةً فيها العدل.

وهذا هو المعنى الثاني من معاني الوسطية وهو العدل والقصد، بمعنى مجانبة الغلو والتفريط، لا تفريط ولا إفراط، أمة وسط بعيدة عن الغلو وبعيدة عن التفريط، والغلو هو مجاوزة الحد، يعني مجاوزة ما جاء به الشرع، مجاوزة الكتاب والسنة، مجاوزة أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الزيادة في العبادة، التعبد لله بما لم يشرعه، والتفريط هو التقصير عن الأوامر الشرعية عن أمر الله وعن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الأمة امتن الله تبارك وتعالى عليها وعلى نبيها أن جعلها بعيدة عن الغلو وبعيدة عن التفريط، فوصف الله تبارك وتعالى محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن: (الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) فوصف الله تبارك وتعالى ما بعث الله به محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه أحل الطيبات وحرم الخبائث وجاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فجاءت هذه الأمة أمة حرة عن القيود وعن الغلو وكذلك حرة من التفلت، قال الله سبحانه وتعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) يعني يشق عليه الأمر الذي فيه المشقة عليكم (عَزِيزٌ عَلَيْهِ) يصعب عليه الأمر الذي فيه عنتكم الذي فيه مشقتكم فلا يسعد النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر الذي فيه مشقتنا بل يهمه ذلك ويغمه.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) هذه الأمة أمة الوسط، قال الله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) هذه الأمة الوسط ذات المنهج المعتدل؛ دينها، قيمها، أحكامها المستمدة من الوحي وكلها دين هي الميزان لقيم الأمم ولحضارات الأمم ولثقافات الأمم ولعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم، نحكم على السلوك والحضارة بالرقي أو بالتخلف بمقدار قربها من قيم المسلمين، فكلما اقتربت من قيم المسلمين ومن آداب المسلمين ومن أخلاق المسلمين فهي أمةٌ راقية، وإذا خالفت أخلاق وعادات وأحكام وحضارة المسلمين فهي أمةٌ متخلفة (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ما تحمله هذه الأمة من الشريعة ومن الدين به القوامة على بقية الأمم وعلى بقية الملل فتنضبط قيم الأمم بقيم المسلمين وتنضبط قيم المسلمين بما عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله سبحانه وتعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الميزان الذي نزن به أعمالنا وأقوالنا وأفعالنا وحضارتنا وأهدافنا ومشاريعنا كلها ميزانها ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو التوسط وهو الوسطية، وما خالف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مذموم، لذلك الوسطية هي اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الوسطية: السير على سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وليس معنى الوسطية مطلق التوسط بين أمرين لأن هناك ناس يطالبون بالوسطية أو ينادون بالوسطية وحقيقة ما ينادون به هو النفاق: فلا تكون مع المؤمنين ولا تكون مع الكافرين، كن وسط، لا تشارك المؤمنين ولا تقف معهم ولا تدعمهم ولا تقف مع الكفار، كن وسطًا أي كن منافقًا. ومن الناس من يدعو إلى الوسطية يدعو إلى الابتداع يعني يطالب بعدم التزمت وعدم التشدد في اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنّ الأمر فيه سعة ويمكن أن نأخذ من هنا ومن هنا ونخلط هذا بهذا ثم يكون منهج وسط، لا هذا ليس منهجًا متوسطًا هذا منهج مبتدع، والأول منهج منافق.

المنهج الوسط هو: ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

أخبرتنا أم المؤمنين عائشة كما في صحيح مسلم: "كان خلقه القرآن."

إذًا الوحي الذي تنضبط به كل المفاهيم، الوحي الذي تنضبط به كل القيم، الوحي هو القيِّم على المسلمين فلا تصح حضارتهم ولا تقوم قيمهم وسلوكهم وعاداتهم وأعرافهم إلا بما وافق الشرع، وكذلك الشرع هو ميزان لبقية الأمم فالأمة قيِّمة على الأمم والقرآن قيِّم على الأمة، القرآن الكتاب والسنة قيم على الجميع.

وأمة الإسلام أمة فاعلة متفاعلة ذات دور حضاري، مسابقة، ذات إنتاج، ذات رسالة، وهذا ما أمر الله تبارك وتعالى به المسلمين والمؤمنين، قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

الحلقة السابعة

(فاسْـتَـبِـقُـوا الْـخَـيْرَاتِ)

قال الله تبارك وتعالى: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الأمر بالاستباق إلى الخيرات جاء في موضعين: في سورة البقرة هذه الآية، وفي سورة المائدة قال الله سبحانه وتعالى: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) والمسابقة إلى الخيرات هو سبيل الأمة والأفراد.

جاء الأمر في الآية بقول الله سبحانه وتعالى: (فَاسْـتَـبِـقُـوا الْـخَـيْرَاتِ) أمر للجمع، للمجموع، (فَاسْـتَـبِـقُـوا الْـخَـيْرَاتِ) فأمة الاسلام أمة مسابقة إلى الخيرات مسارعة فيها، وكذلك أفراد الأمة؛ أفراد الأمة مسابقون في الخيرات مسارعون إليها، ومفهوم المسارعة عند أمة الإسلام مختلف عن بقية الأفكار والمذاهب والآراء، الأمر بالمسارعة والمسابقة في الخيرات في الدنيا والغرض عمارة الآخرة، قال الله سبحانه وتعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) وقال الله سبحانهُ وتعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

فالمسارعة في الدنيا والقصد والمطلب هو رضوان الله تبارك وتعالى والدار الآخرة. هذه القيمة وهذا الخلق الغائب عن كثير من الخلق المتميزة بها أمة الإسلام أمة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- أنها تريد من المسابقة في الخيرات والمسارعة إليها: الله والدار الآخرة.

وأخبرنا الله سبحانه وتعالى عن صفات السابقين والمسابقين في الخيرات، ذكر سبحانه وتعالى صفاتهم وهي صفات تدل على ابتغاء الله والدار الآخرة، قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) فأخبرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عن صفات المسارعين في الخيرات والمسابقين إليها، وهذه الصفات في ترتيبها كما جاء في المصحف، كما جاء في ترتيب الآيات؛ في غاية الحسن.

الصفة الأولى:

قال الله سبحانه وتعالى: (الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) دلت هذه الصفة على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عن ما لا ينبغي، يخاف من الله تبارك وتعالى فيكف عن الآثام، يخشى الله تبارك وتعالى والدار الآخرة، يكف عن الآثام، يكف عن العدوان، يبتعد عن الأذى، يسارع في الخيرات، ويسابق في الطاعات ويجتنب.. يخاف الله تبارك والدار الآخرة فيجتنب الآثام والأذى والظلم والعدوان.

الصفة الثانية:

قال الله سبحانه وتعالى عنهم: (وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) دلت على أصل الإيمان والتعمّق فيه، ابتعاد عن الشر وارتقاء في الإيمان وفي منازل الإيمان وفي القرب من الله تبارك وتعالى.

الصفة الثالثة من صفات السابقين للخيرات المسارعين إليها:

قال الله سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) دلَّت هذه الصفة على ترك الشرك واجتناب الرياء في الطاعات، ففعلهم في المسابقة إلى الخيرات وبذل المعروف وعمارة الأرض ليس من أجل الناس وليس من أجل الخلق، قلوبهم بعيدة عن الشرك وأعمالهم بعيدة عن الرياء.

الصفة الرابعة من صفات الذين يسارعون في الخيرات:

قال الله سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) دلَّت هذه الصفة على الإتيان بالطاعات والمسابقة في الخيرات مع الخوف من التقصير، لا يوجد عجب ولا غرور ولا فخر، لا.. بل لديهم خوف وإشفاق واستسلام لله تبارك وتعالى.

هذه الصفات الأربع صفات الصديقين.

السابق بالخيرات من هو؟! باختصار السابق بالخيرات هو الذي يأتي بالطاعة في أول وقتها على تمامها بفرائضها وسُننها، المسابقة والمسارعة في الخيرات في الدنيا والغرض عمارة الآخرة. هذا هو سبيل المؤمنين، أما الكفّار فلا يريدون الله ولا الدار الآخرة، قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آَيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) هذا سبيل الكفّار؛ الرضى بالدنيا والطمع فيها.

بل أخبر الله سبحانه وتعالى عن الكفار أنهم يُسارعون في الآثام ويُسارعون في المعاصي ويُسارعون في العدوان على الخلق وأكل أموال الناس بالباطل، قال الله سبحانه وتعالى عنهم: (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) مسارعون في المعاصي والآثام والعدوان وإفساد الأرض وأكل أموال الناس بالباطل، فالكفّار يسارعون في الدنيا وفي ملذاتها وأخبر الله سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم يُسارعون في الكفر، قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ)

وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) فأخبر الله سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم يسارعون في الكُفر ويبادرون إليه.

والمنافقون كذلك يُسارعون في العمالة وفي الخيانة ويزعمون أنهم يخافون الدوائر والمصائب والحوادث، قال الله سبحانه وتعالى: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ) هذا سبيل المؤمنين وهذا سبيل أهل الكُفر والنفاق.

سبيل المؤمنين: المسارعة في الخيرات والمسابقة إليها وابتغاء رضوان الله تبارك وتعالى والدار الآخرة.

وسبيل أهل الكفر والنفاق: هو الفساد والعدوان والمسارعة في الإثم والمسارعة في الكفر وأكل أموال الناس بالباطل وفي العمالة والخيانة.

لا يستوي الفريقان، ولا يستوي المسارعون إلى الله من المؤمنين، هم درجات عند الله تبارك وتعالى، يسابقون إلى الله، مسارعون في الخيرات ولكنهم درجات متفاوتة، قال الله سبحانه وتعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يستوي المؤمنون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وكانوا في وقت الشدة وكانوا في وقت الضيق وهم أهل التضحية والمبادرة أعظم درجةً من الذين آمنوا وأسلموا وجاهدوا من بعد الفتح، وَكُلًّا وعده الله تبارك وتعالى الحسنى؛ الجنة. والله سبحانه وتعالى خبير بما في النفوس.

الحلقة الثامنة:

(وبَشّرِ الصّابرينَ)

قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَاتَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ*أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) في هذه الآيات عالج القرآن مشكلة فَقْد الشهداء علاجًا نفسيًّا، والسبب في ذلك.. قيل في سبب نزول هذه الآيات -والله أعلم - أنها نزلت في قتلى بدر، كانوا بضعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين. وأوّل مرة يحصل فيها الخسارة لهذا العدد من المسلمين في معركة واحدة، قُتل أربعة عشر، ثمانية أنصار وستة مهاجرين، في يوم واحد، فكان الفَقْد عزيزًا وصعبًا، وتكلّم الناس، لمّا قُتلوا هؤلاء، قال بعضهم: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذّتها. فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: قُتل عُمير بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ) الآية.

القصد: في مُجْمل هذه الآيات عالج القرآن المشكلة النفسية من فَقْد الشهداء، وعالجها بثلاثة أمور من ناحية نفسية:

الأمر الأول: وهو حال الشهداء، ذكر الله سبحانه وتعالى للأحياء ما هو حال الشهداء فقال الله سبحانه وتعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) ، فالله سبحانه وتعالى يخبر الأحياء: لا تقلقوا على من قُتل في سبيل الله، فإنهم أحياء ولكنكم لا تشعرون بحياتهم.

كما قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فأكّد الله سبحانه وتعالى حياتهم عنده، فقال سبحانه وتعالى: (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وإذا أردتَ أن تُثبت حياة إنسان، تؤكّد حياته، فتقول: بل هو حيٌّ يُرزق

.

فقال الله سبحانه وتعالى عن الشهداء الذين قُتلوا في سبيله: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

فهذا توكيد من الله تبارك وتعالى أنهم عنده تبارك وتعالى أحياءٌ وأنهم يُرزقون، فهذا تطمين وبشارة للأحياء، وبيان لحال الشهداء الذين قُتلوا؛ لا تقلقوا عليهم، هم أحياءٌ عند ربّهم، يأتيهم رزقهم.

وليس ذلك فحسب، بل أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالتهم النفسية، فقال سبحانه وتعالى: (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ*يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) فأخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء أنهم فرحون، وأنهم مستبشرون، فرحون بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من فضله، بما أنعم عليهم تبارك وتعالى من فضل، وإضافةً إلى الفرح هُم في استبشار، مستبشرون بنعمة الله تبارك وتعالى.

هذا بخصوص حال الشهداء، بيان حال الشهداء؛ لا تقلقوا عليهم، لا تحزنوا عليهم، هم أحياءٌ يرزقون، فرحين مستبشرين، هذا كله في بيان حال الشهداء، لا تقلقوا عليهم. فهذا جانب من العلاج النفسي لمشكلة فَقْد الشهداء.

ولكن يبقى أمر آخر، نعم تطمنّا على الشهداء، لكن أنا المُتعب، أنا الذي خسرت الأب، وأنا الذي خسرت الأخ، والزوجة أرملة، والأسرة فَقَدتْ من يعيلها، فنحن متألِّمون على فقده، نعم، هو في حالة جيدة وفي حالة سعيدة، أمره إلى خير، لكن أنا متألّم أنا مُتعَب أريد الراحة.

فجاء البيان التالي، وهو بيان حقيقة الابتلاء والاختبار في الحياة الدنيا، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الدنيا اختبارًا وامتحانًا، فجاءت بعدها مباشرةً قوله سبحانه وتعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ) فَقَدتُم شهداء؟ نعم، وهذا هو الطريق، وهذا هو السبيل، وهذه هي حقيقة الحياة الدنيا، بل إن الله سبحانه وتعالى سيبتليكم بأمورٍ أخرى، قال الله سبحانه وتعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ) هذه ليست أوّل مصيبةٍ ولا آخر مصيبة، وليست أوّل مشكلة ولا آخر مشكلة، هناك اختبارات كثيرة، وكما نجحتم في الاختبار الأول، وهو فَقْد الشهداء، فلا بدّ أن تستعدُّوا للاختبارات التالية، وأن تنجحوا فيها وأن تحققوا فيها الفوز (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) هذا هو الاختبار، وهذا حقيقة الابتلاء وحقيقة الحياة الدنيا، فالحياة كل الحياة هي محل اختبار لأجل الفوز بالآخرة؛ لذلك أخبر الله سبحانه وتعالى عن حقيقة الدنيا، بل الحياة والموت كما قال الله سبحانه وتعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) فوجود الموت، خَلْق الموت وخَلْق الحياة؛ هي اختبار وابتلاء للعبد ليظهر منه حسن العمل.فالابتلاء والاختبار حتميّة لا بدّ منها؛ ليتَبيّن العمل الصالح، بل أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن حتميّة الابتلاء والاختبار لإقامة الجهاد في سبيل الله، فقال سبحانه وتعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) فأخبر سبحانه وتعالى أن الابتلاء مستمر على المؤمنين، ومستمر على المسلمين (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ) ستستمر الابتلاءات؛ حتى يظهر منكم الجهاد، ستستمر هذه الأمة في ابتلاءات؛ حتى تحقق الأمر الذي أمرها الله تبارك وتعالى به، وهو الجهاد. مهما ادّعت السلمية، مهما تهرّبت عن القتال، مهما خافت من المواجهة، ستستمر الابتلاءات، أمرًا قدريًّا من الله تبارك وتعالى، (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) كثير من الناس يدّعون أنه إذا وجب عليهم الجهاد، وفُرض عليهم القتال؛ أنهم مُبادرين إليه، ولكن تأتي الامتحانات والاختبارات من الله تبارك وتعالى لهذه الأمة، ولأفراد هذه الأمة؛ ليَعلم الصادق من الكاذب، وليبيّن من هم الصابرون على أمره تبارك وتعالى، فقال سبحانه وتعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) .

والابتلاء ليظهر الجهاد، أيضًا ذكره الله سبحانه وتعالى في آيات أخرى، قال سبحانه وتعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) تريدون الجنة؟ قبل الجنة هناك اختبارات يجريها الله سبحانه وتعالى ويختبرها الله سبحانه وتعالى عباده (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) ولاحظ أن الله سبحانه وتعالى ذكر الجهاد وذكر معه الصبر؛ لأنه لا بدّ في الجهاد من صبر. ظهر الجهاد؟ نعم، يحتاج الإنسان إلى الصبر عليه والصبر على أمر الله سبحانه وتعالى حتى يتوفّاه الله سبحانه وتعالى.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) فالامتحان والاختبار متوال على هذه الأمة ليتحقق منها الجهاد والصبر والثبات على أمر الله تبارك وتعالى والسير على شرعه.

قال الله سبحانه وتعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه وتعالى أنكم لن تُتركوا دون ابتلاء حتى يظهر منكم الجهاد، ويتحقق منكم محض الولاء. تحسبون أنكم تُتركون من غير أن يتميّز منكم المجاهدون من غيرهم ومن غير أن يظهر منكم الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين؟ (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) ولم يكن لهم غير هؤلاء ولاء، مع الكفار والمنافقين وغيرهم.

فالقصد: الابتلاء مستمر على هذه الأمة، مستمر على الأفراد؛ حتى يظهر منهم الالتزام بأمر الله سبحانه وتعالى والسير على شرعه. فكان الأمر الأول من العلاج النفسي لفَقْد الشهداء هو بيان حال الشهداء.

الأمر الثاني: وهو بيان حقيقة الابتلاء في الحياة الدنيا، وأنه لا بدّ للعبد أن يُبتلى وأن يُختبر، ثم إذا ابتلي واختُبِر، المطلوب ما هو؟ الصبر والثبات.

قال الله سبحانه وتعالى بعدها مُباشرةً: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ*أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) هنا جاءت البشارة، البشارة لِمن؟ البشارة للمسلم الصابر (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) ماذا يفعل هؤلاء الصابرون؟ (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ) نحن ملكٌ لله تبارك وتعالى، نحن خلق الله، نحن ملكٌ لله فيفعل الله سبحانه وتعالى فينا ما يريد، يفعل الله تبارك وتعالى بنا ما يشاء، نحن ملكٌ لله. (قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ونحن مرجعنا إليه تبارك وتعالى سيثيبنا على ما صبرنا عليه. (قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) صبر وثبات واحتساب الأجر عند الله تبارك وتعالى.

الذي يحقق هذا الصبر والثبات واحتساب الأجر عند الله تبارك وتعالى ويقول هذه القولة إذا أُصيب: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ؛ قال الله سبحانه وتعالى: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) الصلوات والرحمة من الله تبارك وتعالى والهداية للصابرين، الذين يثبتون على أمر الله تبارك وتعالى وعلى شرعه، والذين يحتسبون الأجر عنده تبارك وتعالى.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لرضوانه وأن يجعلنا من المسابقين في الخيرات المسارعين إليها، إنه على كل شيء قدير، والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.